(التعريف والنقد)

كتاب المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سورية

المستشفيات وكلية طب الشام(*)

د. عزة حسن

هذا كتاب طريف، فريد في بابه. ألَّفه عالم كبير شهير في التاريخ وتاريخ العلوم. وهو الأستاذ الجليل الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، من أساتذة كلية الآداب في جامعة إستانبول. وقد شغل سنواتٍ طويلةً، وبجدارة وكفاية عالية، منصبَ المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إستانبول. وهذا المركز مؤسسة علمية من الطراز الرفيع، تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، قائم في جناح خاص من قصر يبلديز الكبير الشهير. وقد انتُخب الأستاذ الدكتور أكمل الدين حديثًا، عن جدارة واستحقاق، لمنصب الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم كل دول العالم الإسلامي. ومقرها في جُدَّة بالمملكة العربية السعودية.

دعاني إلى الاهتمام بهذا الكتاب العلمي، والرغبة في التعريف به، معرفتي لمؤلِّفه العالم الكبير، وثقتي بمكانته العلمية الرفيعة، وعلمي الوثيق لحبه للغة العربية التي يتكلمها بأفصح لسان، ويكتبها بأصحّ عبارة، وأجمل أسلوب، ولشغفه بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية، ولعمله الدؤوب في التعريف بثمارهما وقيمهما، وفي كشف وبيان آثارهما القيِّمة في بناء صرح الحضارة الإنسانية.

---

* منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، عمّان ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م ، تأليف أكمل الدين إحسان أوغلي.

وحفزني إلى ذلك أيضًا محتوى الكتاب نفسه. فهو يتضمن معارفَ وحقائقَ ومعلوماتٍ عن بلدنا سورية، يجهلها عامة الناس. يُضاف إلى كل ذلك أنني أعْرِف بنفسي بعض المنشآت الصحية التي عرض لها المؤلِّف، فتحدث عن تأسيسها، وبيّن جدواها وأثرها في نهضة بلدنا، وتأسيس العلم الحديث وتقدمه فيه. فكم من مرة استشفيت في مستشفى الجامعة القديم بدمشق، وهو بناء عثماني، وحَظِيت بعناية أطبائه خلال دراستي في كلية الآداب بجامعة دمشق، في خمسينيات القرن الماضي. وكم من مرة لجأت إلى المستشفى الوطني بحلب، وهو بناء عثماني، وحظيت بعناية أصدقائي الأطباء فيه، حين مرضي أو مرض أحد من أسرتي، في سنوات إقامتي بمدينة حلب. وقد دُعيت مرة للذهاب إلى المستشفى العسكري في حي الرمضانية بحلب، وهو بناء عثماني في الأصل، من أجل معاينتي الصحية بسبب دعوتي لخدمة العَلَم، أي الخدمة العسكرية الإلزامية في بلدنا سورية.

وهذا الكتاب دراسة علمية دقيقة لموضوع طريف بكر. لم يطرقه أحد قبل صدور هذه الدراسة. فقلما يخطر على بال إنسان أن يشتغل بمثل هذا الموضوع الطريف العجيب. والحق أنه لم يسبق لعالم أو باحث كتابة مقال أو إعداد بحث فيه، بَلْهَ تأليفَ كتاب كامل قائم بنفسِه، كافٍ وشامل لكل جوانب الموضوع، ومحيط بكل أطرافه.

قد نرى كلامًا وجيزًا، يأتي عرضًا في بعض المؤلفات، ويلمس جانبًا جزئيًا من جوانب الموضوع. لكنه لايجدي شيئًا كثيرًا، ولايشفي غليلاً. مثل كتاب (الطب والمدارس الطبية العربية من نهاية القرون الوسطى وحتى العصر الحديث)، وهو أطروحة دكتوراه، من إعداد محمد كامل شحادة، بإشراف الدكتور محمد زهير البابا،

في معهد التراث العلمي العربي، قسم تاريخ العلوم الطبية، بجامعة حلب. ومثل كتاب (المستشفى الوطني بحلب)، وهو رسالة علمية، من إعداد عبد المنعم سكر وماجد سلطان الأشرفي، بإشراف أحمد فيصل الرفاعي، في معهد التراث العلمي العربي، قسم العلوم التطبيقية، بجامعة حلب.

ونذكر في هذا الشأن مقالاً للمرحوم الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق، بعنوان (تعريب علوم الطب)، نشره في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٦٠)، الجزء (٤)، ص (٦٤٧-٦٦٥). ونذكر في هذا الشأن أيضًا مقالاً للدكتور عبد الله واثق شهيد الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق، بعنوان (تجربة سورية الرائدة في مجال تعريب العلوم في التعليم العالي). وقد ألقاه في الندوة الدولية حول قضية (اللغة العربية .. إلى أين؟) التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، والبنك الإسلامي للتنمية، في الرباط بالمملكة المغربية، بتاريخ ١-٣ تشرين الثاني سنة ٢٠٠٢م. ثم نشر المقال نفسه في مجلة (التاريخ العربي) التي تُصدرها جمعية المؤرخين المغاربة في الرباط، في العدد الخامس والعشرين، شتاء ٢٠٠٣م، ص (٢٩٣-٣١٣).

ذكر المؤلِّف السبب الذي دعاه لتأليف هذا الكتاب، في أول مقدمته، فقال:

«يأتي ظهور هذا الكتاب ثمرة للالتقاء بين مصادفة بحتة ومشغولية بأمر معيَّن. وهذا الأمر هو الرغبة الصادقة في إعادة رسم صورة التاريخ العثماني، بشكل يتفق والحقائق التاريخية، بعد أن تشوّهت، لأسباب غير علمية، زورًا وبهتانًا، والكشفُ عن قيم الحضارة العثمانية التي انطمست بين ظلمات الجهل أو سوء النيّات».

وتابع المؤلِّف كلامه على بداية اهتمامه بموضوع الكتاب. فقال في مقدمته:

«أما الكتاب الذي بين أيدينا عن (المؤسسات الصحية العثمانية في سورية) فقد ظهر نتيجة لالتقاء بعض المصادفات مع هذا الاهتمام، أو المشغولية التي تحدثت عنها. وكانت أُولى هذه المصادفات في عام ١٩٨٥، عندما دعتني الزميلة الفاضلة الأستاذة (كول راسل) لحضور الندوة التي عقدتها في (دبلن) عاصمة إيرلندا. وكانت تحت عنوان (أسس تاريخ الطب العربي الحديث). وكان المقرَّر في الندوة الحديثَ عن المؤسسات التي كان لها دور الريادة في مجال الطب الحديث في البلدان العربية. وفي ذلك الاجتماع الذي خُصِّص لدراسة تاريخ مدارس الطب التي أُقيمت في القاهرة وبيروت، كانت مفاجأة الندوة أن يقع اختيارنا على موضوع (كلية طب الشام العثمانية) التي لم يكن أحد من كل الحاضرين تقريبًا يعرف شيئًا عنها، على حين كان علمنا نحن بها نتيجة للدراسة التي قام بها المرحوم الأستاذ الدكتور علي رضا آتاصوي. فقد كان واحدًا من أساتذة تلك الكلية. وكانت دراسته عنها هي كل ماكان موجودًا، مما شجعنا على هذا الاختيار».

وأضاف المؤلِّف، في مقدمته، كلامًا بيّن فيه استكمال مواد الكتاب. فقال:

«وفي عام ١٩٨٨م شاركنا في تنظيم وإعداد (مؤتمر تاريخ الطب التركي الأول). وحرصنا آنذاك على أن يكون للمؤسسات الصحية في العهد العثماني الأخير قسم مستقل ضمن أعمال المؤتمر. وقدّمنا تحت ذلك العنوان ورقة عن (المستشفيات في سورية). أما في عام ١٩٨٩م عندما دُعينا لمؤتمر تاريخ العلوم الذي نظمه (معهد التراث العلمي العربي) التابع لجامعة حلب، في مدينة طرطوس السورية، فقد قدّمنا ملخَّصًا لهذا الكتاب مع الرسوم والجداول الخاصة به. ورأينا عند ذلك بريق الحقيقة وهو يلمع في عيون الكثيرين من الزملاء

السوريين.

وأدرك الجميع بوضوح مدى التقدُّم الذي بلغه العهد العثماني الذي كان يُوصم دائمًا بأنه مظلم، ومدى الفرق الشاسع بين ذلك الموقف والصورة التي ترسّخت في الأذهان. فكانت سعادتنا عظيمة ونحن نكشف عن الأدلة بوثائق لاتحتمل اللَّبْس. فالأوراق والبحوث التي قدّمناها نتيجة لتلك المشغولية، والمصادفات التي تحدَّثنا عنها هي التي شكَّلت المسودات الأولى لهذا الكتاب».

لقد رجع المؤلِّف إلى المصادر والمراجع الأصيلة التي تتعلق بموضوع الكتاب. واستقى منها بصدق وإخلاص معلوماته كلها. ووثَّقها بأمانة علمية مثلى. ونرى تفصيلاً لها في (قائمة المصادر والمراجع) التي نظمها، وألحقها بالكتاب.

ونرى إشارة واضحة إلى قيمة هذه المصادر وأهميتها في قول المؤلِّف في مقدمة الكتاب:

«وقد كشفت لنا مصادر ذلك العهد عن معلومات جد ثريّة ومتنوعة، قد لانصادفها في عهد آخر من عهود التاريخ العثماني. وأحد المصادر الأساسية الذي نود الوقوف عنده، وتأكيد أهميته، هو (جريدة سورية) و (جريدة الفرات). وبدأ نشر هاتين الجريدتين في الشام وحلب عام ١٨٦٥ و ١٨٦٧م، جريدتين رسميتين للولاية، باللغتين التركية والعربية. وهما المصدران اللذان تزوّدنا منهما بالمعلومات التي أثْرَتْ هذا الكتاب، والإحصائيات التي شكلَّت جداوله. وهما كنز قيّم، لاغنى عنه للباحثين حول ذلك العهد، بما يضم من مادة ثريّة ومتنوعة. فهما يقدمان، باللغتين التركية والعربية، المعلومات والوثائق الرسمية التي تكشف، بشكل مفصَّل، عن الأعمال التي كان يُنجزها الإداريون العثمانيون، في مجالات التعليم والصحة والإعمار. وتعكس في الوقت نفسه الأنشطة

المختلفة في الولايتين، ومدى اهتمام الأهالي بها. ومن ثَمَّ فهما مصدران فريدان في بابهما».

وقد عرف هذا الصدق وهذه الأمانة العلمية في توثيق الكتاب الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، وهو مقرر لجنة تاريخ بلاد الشام في عَمَّان. فقال عن ذلك على سبيل التنويه، في تقديمه للكتاب:

«لقد قام الزميل الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي على هذه الدراسة الموثقة الشاملة، بكل ماعُرف عنه من دأب وصبر وأناة ودقة في التعبير، مزوِّدًا الدراسة بالمصادر الأولية والمراجع، من عثمانية وتركية وعربية وأجنبية، وبخاصة باللغة الفرنسية».

وحقًا أتى هذا الكتاب ثمرة طيبة لجهود علمية كبيرة. بذلها المؤلف في جد واجتهاد، والتزام دقيق صارم للمنهج العلمي وقول الحقيقة. فوفى الموضوع حقه في صدق وأمانة. وبيّن جدوى المنشآت الصحية العثمانية في بلدنا، وكشف عن أثرها العلمي والصحي والاجتماعي فيه.

وقد أدرك هذه الحقيقة وأبان عنها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت. فقال في تقديمه للكتاب مشيرًا إلى ذلك:

«وتجيء هذه الدراسة الموضوعية الشاملة، القائمة على قراءة دقيقة ومتأنية للمصادر التاريخية، من سالنامات وصحف تركية وعربية، وأوراق رسمية ومذكرات، فريدةً من نوعها، في تناولها للخدمات الطبية في بلاد الشام، في حلب ودمشق وبيروت وبقية المدن الشامية، بمبادرة من دولة السلطنة العثمانية... وتقدّمُ صورة واضحة عن المخصصات المالية والعينية التي أُفردت لهذه المؤسسات، في زمن كانت الدولة تعاني فيه من العسر المالي. وتواجه تحديات أجنبية كثيرة، وبخاصة عشية دخول الدولة في حمّى

الحرب العالمية الأولى».

ويجدر بنا هنا أن نبيِّن فائدة هذا الكتاب في إبراز أثر (كلية طب الشام) العثمانية في الجانب اللغوي. ونعني المصطلح العلمي العربي في العصر الحديث، ولاسيما في العلوم الطبية وتعليمها. وكان تدريس الطب في هذه الكلية باللغة التركية العثمانية.

وقد أوضح مؤلِّف الكتاب هذا الأثر اللغوي المفيد بكلامه على (كلية طب الشام). فقال:

«ويبدو أن التعليم باللغة التركية في (كلية طب الشام) مَزِيّة لمصلحة أهالي المنطقة، لأن هذه الكلية هي التي شكَّلت أساس كلية الطب في دولة سورية المستقلة فيما بعد. فقد كان التدريس في (كلية طب الشام) باللغة التركية العثمانية أمرًا يَسَّر الانتقال إلى تدريس الطب باللغة العربية دون عوائق. وأصبح ذلك من المزايا الهامة التي انفردت بها كلية الطب في دمشق دون سائر كليات الطب في العالم العربي التي لازال يُدَرَّس الطب فيها باللغات الأوربية. ولاشك أن هذا تعبير واضح عن مدى الأثر الذي تركته (كلية طب الشام) في تدريس الطب باللغة العربية.

«ويرجع السبب في ذلك إلى حركة ترجمة العلوم الحديثة إلى اللغة التركية العثمانية، التي قام بها معلمو الطب بالتركية في كلية طب إستانبول. فإن المنهج الذي جروا عليه في وضع المصطلح قد يَسّر انتشاره في سائر الدول الإسلامية الأخرى. ففي الوقت الذي كان الأوربيون فيه يضعون الكلمات والمصطلحات الجديدة للمفاهيم والمواد المكتشفة حديثًا مستعينين باللغتين القديمتين اليونانية واللاتينية، اللتين هما الأساس التقليدي في الأرضية الثقافية، كان العثمانيون قد فضّلوا، في مقابل ذلك، سبيل الاشتقاق ووضع مصطلحاتهم الجديدة من اللغتين

العربية والفارسية، اللتين تشكّلان إلى جانب اللغة التركية الأسس التقليدية في حضارتهم. ورأى رُوَّاد الجمعية الطبية أن يستفيدوا من الثراء العظيم في أدبيات الطب الإسلامي التقليدي المدوَّن بالعربية. فراحوا يضعون لمصطلحات الطب الحديث مفردات جديدة، تعتمد بالدرجة الأولى على اللغة العربية»[1].

قدّم المؤلِّف لكتابه بمقدمة ذكر فيها السبب الأساسي الذي دعاه لتأليفه. وبيّن المراحل التي أتمّ فيها أقسام موضوعه. ثم تحدَّث عن المصادر والوثائق الأساسية التي اعتمد عليها. ومنها (جريدة سورية) و(جريدة الفرات) اللتان كانتا تصدران باللغتين التركية والعربية.

وكتب المؤلِّف مدخلاً، ألقى فيه (نظرة على المؤسسات الصحية في بلاد الشام قبل العهد العثماني).

ثم كسر مضمون الكتاب على ثلاثة فصول.

الفصل الأول: المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سورية

أولاً: المستشفيات في دمشق.

١- المستشفى المركزي العسكري بدمشق والخدمات الصحية العسكرية.

٢- مستشفى الغرباء بدمشق.

٣- افتتاح مستشفى للنساء في قسم من مستشفى الغرباء بدمشق.

٤- مستشفى الحميدية للغرباء بدمشق.

ثانيًا: المستشفيات العثمانية في حلب.

١- مستشفى الرمضانية المركزي العسكري بحلب.

٢- مستشفى الحميدية للغرباء بحلب.

(1) المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سورية، ص (٩٤ – ٩٥).

ثالثًا: المؤسسات الصحية الأخرى في ولاية سورية.

الفصل الثاني: كلية طب الشام

أولاً: معاهد تعليم الطب الحديث في الدولة العثمانية.

١- بداية التعليم الطبي الحديث عند العثمانيين.

٢- معاهد التعليم الطبي الأخرى داخل أراضي الدولة العثمانية.

أ- مدرسة الطب المصرية.

ب- مدرسة الطب والصيدلة الأمريكية في بيروت.

ج- كلية الطب الفرنسية الكاثوليكية في بيروت.

ثانيًا: كلية طب الشام الملكية أو كلية طب دار الفنون العثمانية.

١- تأسيس كلية طب الشام.

أ- الاستعداد لافتتاح كلية طب الشام.

ب- الاحتفال بافتتاح كلية طب الشام.

ج- بداية الدراسة في كلية طب الشام.

د- هيئة تدريس الصف الأول.

هـ- إقامة بناء خاص بالكلية.

٢- أمور الإدارة والتدريس في كلية طب الشام.

أ- هيئة الإدارة.

ب- هيئة تدريس الصف الثاني.

ج- هيئة تدريس الصف الثالث.

د- هيئة تدريس الصف الرابع.

هـ - هيئة تدريس الصف الخامس.

٣– كلية طب الشام خلال العهد الدستوري الثاني.

أ – هيئة تدريس الصف السادس ومواد الدراسة.

ب – انتقال كلية طب الشام إلى مبناها الجديد.

٤– انتقال كلية طب الشام إلى بيروت.

٥– إغلاق كلية طب الشام.

٦– أهمية كلية طب الشام في المنطقة.

٧– خلاصة موجزة للوضع.

الفصل الثالث

الملاحق:

أولاً: تعريب التعليمات المحتوية على أصول إدارة المستشفى الحميدي بدمشق.

ثانيًا: بعض الملاحظات على القيام بمهنة الطب والصيدلة في سورية.

ثالثًا: إحصائيات المستشفى الحميدي للغرباء بدمشق.

وأمّا بعد فإنني أقول في الختام ماكان ينبغي لي قوله في بدء الكلام. ذلك أنه قد تولاّني العجب والإعجاب معًا، حين قرأت عنوان الكتاب. وازداد عجبي وإعجابي حين تصفحته أوَّلَ وَهْلة، ورأيت وثائقه وجداوله وصوره. ثم مضيت في قراءته بتمامه، متعجبًا متمتعًا، مع الشعور بكامل الثناء، وبالغ التقدير، لمؤلِّفه العالم الكبير. جزاه الله خيرًا، ولَقَّاه بِرًّا، وزاد في عمره عمرًا.